نقد الكتب

عبد الحسين الهنداوي

تحت جدارية سعدي يوسف..

النقاء والغنائية الجذابة غير المترفة هي السمة الطافحة على طريقة سعدي يوسف الشعرية في «تحت جدارية فائق حسن»، فرغم انه يتجول بنا في ازقة وطرقات يملأها حفيف الينابيع والنسمات الليلية وهي تنسل بين خوص النخيل وطراوة الحروف ، الا بين اللحظة والاخرى نجد انفسنا في الواقع نتجول فعلا وبرغبة جامحة معه ولكن في طرقات تزدحم بالقتلى وجثث العمال والكادحين ، طرقات يدب قمل السجون على جدرانها وشديد الى حد كبير نزيفها الدموي ، الا ان سعدي في الحالتين معا يصر في النهاية ان لا يتركنا ننتهي من التجوال دون ان يرسم لنا ـ نحن الجماهير المعدمة ـ « فوق السلاسل ، نافذة وغدا احمر الأفق » يمتدان ليصيرا جناحين ، ثم يمتدان اكثر ليصيرا «عواصم تسكنها النجمة الساهرة » ، ولا اظن هذه النجمة غير الطبقة العاملة وحلفائها ، وبعد كل ذلك يظل صوته الشعري هنا ، مزيجا من النقاء والاناقة والدفء والغنائية الجذابة ، لماذا ؟.

فسعدي الذي هو باعتراف الكثيرين احدى العلامات المضيئة في الشعر العربي التقدمي الحديث وواحدة من اكثر العلامات ـ ربما اكثرها ـ اضاءة في الشعر العراقي ، يمتلك في هذه المجموعة (الاصح في بعض قصائدها) دون غيرها هاتين الصفتين عن جدارة وموضوعية تامتين ، فالنضج في الشكل والمضمون وغياب الذات الى حد ما ، والتسلسل في المقدمات والاستنتاج وتوفر السيولة اللغوية ، والالتزام ، بالاضافة الى رشاقة الادوات، هي من الصفات التي يبدو لي ان سعدي يوسف ينفرد بها دون غيره من الشعراء العرب المعروفين . ولا شك ان ثمة اسباب واضحة تكمن وراء ذلك . فتراكم الخبرات الحياتية والسياسية والشعرية هو ابرز تلك الاسباب .

فعالم « تحت جدارية فائق حسن » هو عالم سعدي يوسف ، الشاعر والانسان ، المعتاد ، عالم الواقع اليومي الصادق بكل ما في هذا الواقع من جوانب عديدة ، فسعدي الشاعر والشيوعي في آن واحد ، يحاول التحليق بحكم صفته الاولى في اجواء لا محدودة، الا انه يجد نفسه دائما ـ واعيا مريدا ـ يحلق ضمن حدود معينة وليس كما يحلق الآخرون ، انه كعصفور مشدود بخيط الى شجرة ما اقصى حدود طيرانه اقصى طول للخيط . غير ان الخيط ـ الالتزام الواعي ـ الذي يشد هذا الشاعر هو هنا منجم الابداعات العظيم ، انه الواقع الملموس نفسه ، سيما اذا توفر لها من يتمكن ـ كما تمكن سعدي ـ من اكتشافها والتعامل معها بدقة وحذق شديدين .

ثم كان اجتهاد سعدي وتمكنه من النفاذ ـ وليس فقط التامل ـ الى هذا الواقع واستكشاف ابعاده مستندا الى وعي وثقافة وتجربة ذات شان ، قادرة لا على تجريد هذا الواقع والانتقال به الى عالم شعري صاف فحسب بل والخوض فيه هو بالذات، ومحاولة ضمن امكانات محدودة ، تغييره . فكانت العملية الشعرية لدى سعدي في النهاية تحمل سماتها الابداعية عن جدارة من ناحية الشكل دون ان تنضب سماتها الابداعية من ناحية الدلالة والمضمون ، ثم هذه المقدرة الرائعة على انتزاع موافقة الآخرين ـ الجماهير ـ على الحديث نيابة عنهم وكأنه منتخب لهذه المهمة من قبلهم لذلك ، وهنا تكمن خصوبة شاعرية سعدي .

ان معظم قصائد المجموعة ـ وباعتقادي معظم ابيات المجموعة ـ هي بمثابة ثورة انسانية ضد القهر الكوني وضد القوى الشريرة التي تلوك هذا العالم ، وضد سحق الانسان واستغلاله واذلاله ، انها تمتلك باستيعاب شبه متكامل زمام الرؤيا الحضارية الثورية القادرة على الاندماج في رؤيا فنية وثورية هي الاخرى ، رؤيا فنية ثورية لا تستهلك اعصابها في الركض وراء المفاهيم الوجودية والعدمية والزخرفة البيانية والبحث عن مفردات مكعبة . بل هو العكس تماما انه انقاذ اللغة الشعرية من جفاف القواميس والمعاجم باستخدامها كما طوعها الشارع ـ الجمهور (نصف المثقف) بحيثياتها اليومية وغنائيتها التلقائية المحببة والمتفائلة المؤمنة بالانسان صانعا وحيدا للتاريخ :

كل الاغاني انتهت ، الا اغاني الناس
والصوت لو يشترى ما تشتريه الناس
عمدا نسيت الذي بيني وبين الناس
منهم ـ انا مثلهم ـ والصوت منهم عاد ..

تبقى قضية هامة لا يمكن اغفالها عند الحديث عن سعدي يوسف ، انه كما قلنا شاعر وشيوعي وهو في آن واحد ، ناضل وسجن وتشرد وتحمل الكثير من اجل قضية هي ليست قضية ذاتية مطلقا ، وامتلك قبل ذلك الوعي الثوري وعرف العمل الطبقي وذاق ظلمه ومرارته منذ الطفولة وبارهاقاته :

لي عليك الشباب الذي منطويا ،
والطفولة ، دون رواء الطفوله
والواجب المدرسي الذي كنت اكتبه في بطء
الدفاتر تلك ،
الثياب التي يسخر الفتية الجامعيون منها
ولكنني كنت اعرف انك حين تمرين مسرعة
لا ترين ثيابي
ولا الواجب المدرسي
وانك خلف الجدار الذي تقيميه انت ،
جدار الصراع الطويل ..

يضاف الى ذلك كل ارتباط سعدي بالجماهير من خلال ارتباطه بالحزب ، ارتباطا وثيقا حتى عام ١٩٦٥ ، وارتباطا اقل من ذلك فيما بعد ـ الهجرة الى الجزائر ولواحقها ـ فالعمل السياسي مكن سعدي من معايشة معاناة الجماهير الشعبية معايشة مباشرة ، فاستلهم تجربتها والامها وشكل هو الواقع الملموس ، وصبها شعرا له مميزاته الفنية الاسباب موضوعية عن مميزات زملائه من الشعراء الذين واكبوا النضال السياسي وارتبطوا بالواقع وبدرجات متباينة به ، فعذابات السجون وشظف العيش بينهم الكثير من الشعراء سجلها هو ، والآخرون ، بحيوية متدفقة هي حيوية الواقع ، فجاءت خصبة ونقية خصوبتها ونقاءها من خصائص قصائد سعدي احس بانه لا يتحدث عن نفسه فحسب ، بل عن مجموعة من المثقفين المناضلين في اول ايار دخلت السجن ،
استجلتني الضباط الملكيون شيوعيا ،
وكان قميصي اسود
مزقته عتق صفراء
خرجت من القاعة تتبعني
صفعات الحراس ، وسخرية الحاكم
لي امراة اعشقها
وكتاب من ورق النخل
تأنق به الاسماء الاولى
شاهدت مراكز توقيف يملؤها القمل
واخرى يملؤها الرمل
واخرى خالية
الا من وجهي

وهناك اخيرا : ميزة تجربة سعدي الشعرية ، تلك جدا ، احدى رواقدها بل رافدها الرئيسي تجربة المناضلين العراقيين ، تلك التجربة الطويلة الحافلة بالدماء والجثث والمآسي المريرة والتي تركت ردحا طويلا من الزمن يكفي لبلورتها في شعر مرهف تبلورا واعيا ، تجربة وقف بعض كبار الشعراء الحزبيين والتقدميين في العراق مواقف ودعوات متباينة تتراوح بين معاداة السكوت المطبق ، غير ان سعدي ـ وقلائل ـ على النفس والانزواء في ثناياها ، بل يدعو وهو يتفجر مرارة :

تشعل ، وامنحوا نارنا حطبا
اكثر الطوالع فيها ..

انما هو المستقبل الذي ينتظره هذا الشاعر ، تصنعه « الاكف الخشوشنة » اكف الكادحين ، دون ان ينسى اهداء المجموعة ذاتها الى الذين سقطوا وهم يقارعون الاستعمار في القناة مجسدين بعدنان البراك الرمز . اذا بالضبط تكمن مكانته الشعرية الاستثنائية.

كتب صدرت حديثاً

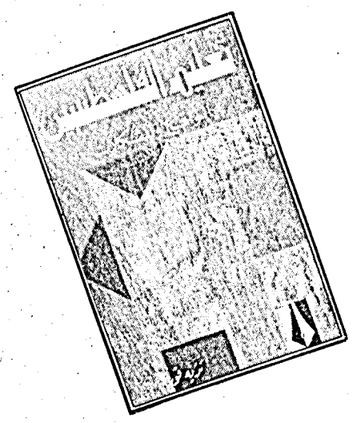

صدر عن مركز الابحاث في سلسلة الكتب العلمية القيمة كتاب تعليم « الفلسطينيين ـ الواقع والمشكلات » لنزيه قوره ، وهو كتاب يتناول بالبحث والتحليل « حجم التعليم ومضمونه » ، ودور لعبة التعليم في حياة الفلسطينيين مدعوما بالاحصاءات العلمية ، ومستعرضا كافة المشاكل الحيوية التي اعترضت وما زالت تعترض التعليم بالنسبة للفلسطينيين .

كما ويضع الكاتب في دراسته هذه تصورا لكيفية توظيف الكفاءات الفلسطينية في النمو بالمستقبل التعليمي للشعب الفلسطيني .

ان هذا الكتاب دراسة تستهدف القاء الضوء على الدور الذي لعبه التعليم في حياة الفلسطينيين وحجم التعليم ومضمونه ، والمشكلات التي تعترض الفلسطينيين في سعيهم لاحراز مستوى علمي يساهم في حل قضاياهم والمشكلات الناتجة عن طبيعة تركيب الاجهزة التي تشرف على تعليمهم وعن مضمون هذا التعليم .

النادي الثقافي العربي بالتعاون مع لجنة تخليد غسان كنفاني

رسوم لأرض البرتقال

مجموعة رسوم مستوحاة من أعمال الشهيد غسان كنفاني

بريشة الفنان العراقي

ضياء العزاوي

من ٢٢ إلى ٣١ أيار ١٩٧٥ بالنادي الثقافي العربي،

شارع عبد العزيز، بناية يارد، بيروت